AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

892.71
I211ysuA

زين العابدين السنوسي

الوطنية

في شعر ابن حمديس

منشورات
دار المغرب العربي
تونس

في الأدب العربي وديوان ابن حمديس

892.71
I 211YsuA

الوطنية

بقلم
زين العابدين التنوسي

الاهداء

هاته باكورة من دراسات قدكتبتها سنتي ٣ و ١٩٤٤ وأنا في الوسط من بلاد الروم (ايطاليا) مدة تغربي عن وطني تونس من أفريقيا الكبرى العزيزة .

تتعلق بالوطنية عند العرب . كتبتها على ضوء ديوان ابن حمديس الصقلي الذي أخرج بدوره عن جزيرته الصغيرة الواقعة منتصف هذا البحر المتوسط . فهاجر الى افريقيتي يغني شعبها العربي المسلم (أغنية الطريد) ويناشد ملوكها الاستفاقة . بينما أنا قد أخذت من افريقيتي على جناح الطائر الفولاذي مجتازا بي على جزيرته صقلية التي كانت تمر تحتي مدخنة سيقارتها من جبل النسار مجتازا بي الى وسط بلاد الروم . فكان سيرنا متعاكسا وعصرنا متباعدا . وكان حالنا واحدا من استيلاء المعتدين على اوطاننا ومن التغرب للمرء على النفس . وانما كان يتنقل حرا بين اخوانه المسلمين وملوك العرب . في حين اني كنت أسير الواقع ولم يكن في ساعتي تلك ملك عربي واحد في منعة من أيدي الطغيان الاروبي

انما أطمع هاته الدراسة وفجر الامل كما علم نوره ؛ وأنا أتفاءل ان الغروب الذي شهد ابن حمديس تخييمه على العالم قد آذن ليله بالبلج .

فأنا أهديها الى طبقات الآملين من كهول مدركين وشبان عاملين .

٣٠ مارس ١٩٥٠ زين العابدين السنوسي

الفاتحة

عبد الجبار بن حمديس هو اول شاعر في العربية قد ترك لنا ديوانا كاملا من الوطنية المشبوبة الموتورة ! .

وشاعرنا هذا من ابناء القرن الخامس للعصر الصنهاجي في افريقيا ولد في مقلية سنة ٤٤٧ ولكنه اضطر الى الهجرة عنها وهو كما شب من ربيع العشرين فطاف بافريقيا والاندلس ثم رجع الى صفاقس وتجنة والمهدية من الملك الصنهاجي بافريقية فعاش فيه فوت نصف قرن كامل يبكي فيه وطنه ويحرض ملوكها على استرداده ويبز من همتهم بالاشادة بذكر فضائله وفضائل رجاله وفضائل شاباته حتى مات وهو في عنبة التسعين من العمر .

مقدمة

ليس المهم هنا ان ننظر بين الوحدة الاممية التي عمل لبلوغها الاسلام . والشعوبية التي خذلت الدولة العباسية فقسمت خلافتها الى امارات ونثرت من وحدتها المعقودة

كما انه ليس من غرضنا ان نعين موقف شاعرنا من الفكرتين وانما نقصد الى تخليد حقيقة من ترسيم حدود الوطنية الشريفة التي هي في شرفات حلقة من حلقات التجمع البشري والحضارة المتناصرة المعقودة على الوطن . مما لم يسبق لنا ان راينا له مايماثله دقة واطنابا وتمحيصا وتمحضا . في شعراء العربية . ولا غرو فان وطنه جزيرة صقلية . هي اول « وطن » طاله الغزو الصليبي واقتطعه كاملا من جسم العروبة والاسلام مع اختها الصغرى جزيرة مالطة فهاجر اهلها مبثوثين في الارض .

٥٤ انا من صاح ـ به يوم النوى ـ عن مغانيه غراب فاغترب
٥٥ طفت بالافاق حتى اكتهلت غربتي واحتنكت سن الادب

في جحيم التشرد قد انصهرت للعربية في نفس شاعرنا السبائك الماجدة الاولى لعاطفة « الوطنية » الناضجة:

١ بحكم زمان ساءه كيف يحكم ... تحرم اوطان علينا فنحرم
٢ لقد اركبتني غارب البين غربة ... الى اليوم عن رسم الحماهي ترسم
٧ وقد مخرت في كل شرق ومغرب ... عليها بحور البيد بالعزم اسهم
٨ واوجف حوليها الكفاءة ضوامرا ... فلا سنبك الا يساريه منسم
١٠ فان تسر في ليل وحيش فانها ... سفائن بر بين بحرين عوم
١١ وصيد يصيدون الفوارس بالقنا ... اذا نكل الابطال في الروع اقدموا
١٣ دعتهم بروق بالاكف مشيرة ... اليهم وعين عرفها يتنسم
١٤ عصا شملهم شت فشرق منجد ... الى طيبة منهم وغرب متهم
١٥ وما قد قد السير بالطول سيرهم ... ولكنما المنقد قلبي المتيم
١٦ طوى البعد عنا فو نطوين على الجوى ... نواعم تشقى بالنعيم وتنعم
١٧ دعونا نسائر حاديا قاد نحوها ... مسامعنا منه الحداء المنغم
١٨ فما هذه الاهداج الا قلوبنا ... حبائبنا فيها سرائر تكتم
٢١ ارجع بالشوق الحنين وانما ... يهيج حنيني عودها حين يرغم
٣٢ فلله عمر مر بي فكسانني ... به في جنان الخلد قد كنت انعم

٢٦٧

فهو لم يتسل عن وطنه الذي اخرج عنه وفارقه في ميعة صباه الحافل . ولكن كيف تنزع الرجال عن اوطانها ؟ .

الحرب لتحقيق السلم

وقبل ان ننغمس في وطنيته الفدائية نرى ان نلمح الى حقيقة قد تمحضت في ادبه الناضج ـ ولا نعرف لها نظيرا في عصره . فلقد بهرنا جلاؤها في ادبه ـ على غرابتها وعمقها السامي الى روح البشرية الرفيعة .

فان اديبنا ابن حمديس قد صدع بالطرد عن جزيرته فذاق علقة الغربة والتشرد عن غير ضغينة شخصية ولا غرض ذاتي . وانما هو ضحية التباغض الذي زفر . والكنيسة الرومانية ترسل جميع الشعوب المسيحية البعيدة من اقصى اسكندنافيا الى الجزائر البريطانية الغربية تتدافع بسحر العصبية الدينية لاكتساح المسلمين في حروب صليبية جارفة تدفع بفلكهم في اليم . فمات من مات منهم في البحر بدون حساب . ثم تعلق باقيهم بتلك الجزيرة . وطنه المنفرد وسط البحر المتوسط بين الروم والعرب . فصمد اهل الجزيرة من مثل فرقة « بني الثغر » المستميتة في الدفاع عن وطنها صقلية وثغره الكبير سيرقوسة . وشاعرنا وسط صحبه يغذي من نفوسهم المتشبثة بتراب الوطن .

١ بني الثغر لستم في الورى ببني امي ... اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم

٢ ذروا النوم اني خائف ان تدوسكم ... دواه وانتم في الاماني مع الحلم

٩ ولله منكم كل ماض كعضبة يسير الى الهيجاء متقد العزم
١٠ يحدث بالاقدام نفسا وانما يطير الى الحرب اشتياقا الى السلم
٢٧٠

فلا بد ان نقف هنا لحظة لهاته الفدائية التي ترتمي في الموت (اشتياقا الى السلم) بردع روح الاعتداء والغصب . فيا له من نص على الرشاد الفادي . لو تمكنوا من قمع تلك الهجمات الاولى . لما تتابعت الحروب الصليبية في حلقاتها المتسلسلة على القرون ومازال المدركون يحسون بذيولها في مختلف التشكلات المتالية الى اليوم . من حروب بيت المقدس الى حملة سان لويز على قرطاجنة هنا حتى تلونت بالاستعمار البغيض الذي رجع على شعوب اروبا حتى درجة التناحر الجنسي والتقاتل بين بعضهم بعضا

بينما كان صاحبنا يدرك شؤم الحرب ويعلن تفاديها باعتبارها جنونا بشريا . وان يقر بانها شر لا بد منه . فهو برغم عقله وحلمه وسلمه لا يرى مندوحة عن ان يتسلح لهؤلاء الجهولين ليعيش بينهم

١٦ له عين ضرغام هصور . وقلبه بتصريف فعل الجهل منه على علم
٢٧٠

فشاعرنا عالم بمبلغ الجهالة التي ترتكبها البشرية بتناحرها في تلك الحروب . ولكنه يسعه ما يسعهم وما تواطؤوا عليه من تيار جهالة الحروب . ثم هو فوقهم درجة قصية بادراكه لجهالة ما ياتونه جميعا .

—٥—

ولو اردنا ان نتتبع تاريخ هذا الادراك ـ للعقول المتفوقة ـ لحقيقة جهالة الحرب من صالح السلم للبشرية لوجدنا له شذرات متناثرة من قرن قبله في مثل استعراض المتنبي لفوز سيف الدولة الصامد في وجه البزنطيين ايام محاولتهم اكتساح الشام العربية في طلائع نفس تلك الحروب ومع ذلك فانه لمح المحنة البشرية في مثل هاتيك الانتصارات اذ قال واصفا السبيات وحظوظ المغلوبين :

فلم يبق الا من حماها من الظبى لما شفتيها والندي النواهد
تبكي عليهن البطارق في الدجى وهن لدينا ملقيات كواسد

واذا به لا يبطر ولا يلتذ بهذا الفوز بل يتنهد تنهدة المدرك :

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

فهذا مبدا ادراك قاع لطغيان نخوة الانتصار وهو رشاد قد يعد غريبا على شاعر الدولة في ساعة نخوتها ومجد ظفرها .

* * *

والقى من مثل هذا في الادب العربي اشباها ومبادي تتغلغل الى اوائل عصر التدوين وتتغلغل الى عصر الرواية للادب الجاهلي من مختلف النصوص الصريحة في الدلالة على سمو الشعور العربي وادراكه للويلات الاجتماعية للحروب من مثل قول عمر بن معديكرب .

كم من اخ لي صالح بواته بيدي لحدا
ما ان جزعت ولا هلعـ ـت ولا يرد بكاي زندا

البسته اثـــوابـــه وخلقت حين خلقت جلدا
ذهب الـــذين احبهـــم وبقيت مثل السيف فردا

واصرح منه قمع الطغيان الذي يتلبس به المنتصر في ساعة ظفره قول الفند الزماني في حرب البسوس لقرن قبل تاريخ الهجرة في قصيدته التي خلدها أبو تمام في « ديوان الحماسة »

وبعض الحلم عند الجهل للـــذلـــة اذعـــان
وفي الشر نجـاة حيـــ ـــن لا ينجيك احســـان

فهو صريح في اعتبار هذا المنتصر ان الحرب شر برغم اضطراره اليها . وانما المهم هنا ان نلحظ ان هذا الادراك ما هو الا كالاساس الدفين بالنسبة للقصر الممرد . فاين هي من المعنى الاجتماعي الذي لخصه شاعرنا ابن حمديس الذي « يطير الى الحرب اشتياقا الى السلم » ويا له من ملحظ وروح حضرية . وماذا عساها تكون محنة العالم اليوم لو انتصر العرب على الدفعة الصليبية الاولى واي مرتبة تكون قد بلغتها الحضارة من الطمانينة التي لم يعرفها العالم حتى هـاته الساعة . اذ ساد في الدنيا من ساعتها المبدا المشوم الذي يحسب ان « القوة هي الحق » ! وتغلب مذهب نيرون انبراطور رومة « تعسا لمن غلب » . بينما كان فلاسفة الاسلام وشعراء العروبة ينـادون ان القوة يجب ان تكون لفرض السلام وانهم يحاربون لفرض الحق وتثبيت الامن وتمهيد الحضارة المشروعة التي هي دين الحضارة الحقة

روح الوطنية

فهذا مبدا ادراك قامع لطغيان نخوة الانتصار وهو رشاد قد يعد فاستمعه يقرع ابطاله من الفرقة الفدائية « ابناء الثغر » . ثم سمه فيلسوفا أو واضعا لقواعد الوطنية في كتاب العروبة والمجتمع . فما هو الا شاعرنا ذو العقل الجبّار الخصيب :

١٧ ولله ارض ان عدمتم هواءها فاهواؤكم في الارض منثورة النظم
١٨ وعزكم يفضي الى الذل والنوى من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
١٩ فان بلاد الناس ليست بلادكم ولا جارها والحلم كالجار والحكم
٢٠ اعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم وكم خالة جداء لم تغن عن ام
٢١ اخلي الذي حدبي بحبي وصلته لديه كما نيط الرواء من الوسمى
٢٢ تقيد من القطر العزيز بموطن ومت عند ربع من ربوعك اورسم
٢٣ واياك - يوما - ان تجرب غربة فلن يستجيز العقل تجربة السم

٢٧٠

فاي عذر قد بلغه عبد الجبار هذا . واي فداء فاداه بطلا وشاعرا . .
لقد افتك منه وطنه وشرد عنه . ولقد انتزع منه حبه بما لا سبيل اليه . فهام على وجهه كالعصفور يغرد في كل ريح

٢٠ اعلى الزماع تلوم مغتربا يقري الرحال غوارب الابل
٢١ اني اقيم صدورها لسرى تهدي كلاكله الى الكلل

٣٢ واروم عن وطني وقد دميت بعدي مدامع دمية الكلل
٢٤٧

فهو يبكي وطنه ويبكي حبيبته . وانما قال قصيدته تلك لسنتين من خروجه طريدا عن الوطن . وتراه فيها يحن الى الوطن وءاله حنين البكر . رغم كونه قد ظفر في مهجره بجنة دانية القطوف من بلاط المعتمد ابن عباد الباذخ باندلس الترفة . حتى اذ وقع ابن عباد من جنته تلك الى صحراء المغرب ولم يعد لشاعرنا مقر باندلس . بدل القافية وانشد نفس النغمة على توقيع كبريائه :

١ تدرعت صبري جنة للنوائب فان لم تسالم يا زمان فحارب
١٤ ركبت النوى في رحل كل نجيبة تواصل اسبابي بقطع السباسب
١٨ ولا سكن الا مناجاة فكرة كاني بها مستحضر كل غائب
٢٠ احتى خيال كنت احضى بزوره له في الكرى عن مضجعي صد عاتب
٢١ فهل حال من شكلي عليه فلم يزر فضاضة جسمي وابيضاض ذوائبي
٢٢ اذا عد من غاب الشهور لغربة عددت لها الاحقاب فوق الحقائب
٣٠ ولو ان ارضي حرة لانيتها بعزم يعد السير ضربة لازب
٣١ ولكن ارضي كيف لي بفكاكها من الاسر؟ في ايدي العلوج الغواصب
٢٧

اغراؤه الملوك لتخليص وطنه

ولقد لاحظنا انه بلغ من اغرائه لملوك عصره في مدائحه لوطنه حتى يعاودون افتكاكه واسترجاعه من « ايدي العلوج الغواصب » ان اصبح لا يذكر جزيرته الا مطررة بهالة من نور الخصب والبهجة . ولا يذكر اخوانه ابناء صقلية الا شباب مجد وكر ومصابرة وكفاح مستميت . لا ينبي ولا يكل :

٤٤ اولئك قوم لا تخاف انحرافهم عن الموت ان خامت اسود الكتائب
٤٥ يموتون موت العز في حومة الوغى اذا مات اهل الجبن بين الكواعب
٥١ فغاروا افول النجم في حفر البلا وابقوا على الدنيا سواد الغياهب
٥٢ الا في ضمان الله دار (نوطس) ودرت عليها معصرات الهواضب
٥٣ امثلها في خاطري كل ساعة وامري لها قطر الدموع السواكب
٥٥ ومن يك ابقى قلبه رسم منزل تمنى له بالجسم عودة ايب

ويرثي شبابها ويشيد ببطولتهم في كل مناسبة طيلة حياته .

١ رعى ورق البيض الذي زهره دم بهم ورق عن زهره الروض يبسم
٢ جبابرة في الروع تعدو جيادهم بهم فوق ما شج الوشيج المقوم
١٨ ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم اذا عبست حرب بهم تتبسم

٤٦٩

وفي هاته المرثية لاخوانه يصفهم بانهم كانوا لا يكتفون بدفاع العدو المهاجم المتفوق . بل انهم قد ينتهزون الفرص السوانح .

فيرجعون عليه الكرة بسطوة وظفر ـ على تفاهة عددهم . وقديرجعون الى المراكز التي احتلها واطمان اليها . فيغزونه فيها غزوات موفقة غانمة تزعزع من قواه الادبية . ولكن اهل الجزيرة . مع عدوهم : قل في غنى و ثروة ازاء كثرة . لان اخوانهم على القارة الكبيرة جنوبا لا يعينونهم ولا ينصرونهم . والوحدة الاسلامية قد اعترتها الاغفاءة الاولى العميقة من النومة الطويلة . بينما صيحة الكنيسة كانت تعقد من النصرانية وحدة صليبية مغمضة العينين جارفة . ولوامتفاق العرب وسدوا دون النرمان من الصليبيين مضيق طارق ـ الذي كانوا يملكون ضفتيه ـ لخنقوا التيار بحركة واحدة هينة . وكفى الله المومنين القتال . ولكنهم لم يفعلوا . ولم تستكشف الانسانية مثل هاته الخطط الحاسمة . ولا تهيات اساطيل دهرها وعلم الجغرافية لمثل هذا .

مواطنوه عز الانسانية وبهجتها

وهو يبلغ في اغراءاته تلك وتمجيده لوطنه واعتزازه بذكراه ان لا يصور من رجاله الا ابطالا ويطلع عليك من ادبه نساء صقلية كلهن شابات نواعم غيد . حتى في قصيدته « انشودة الطريد »

١٣ ولله ارضي التي لم تزل كناس الضباء وغيل الاسود
١٤ فمن شادن بابلي الجفون نفور الوصال انيس الصدود
١٥ يدير الهوى منه طرف كليل يفل ذلاقة طرفي الحديد
١٦ ومن قسور شائك البرثنين له لبدة سردت من حديد
٢٨ مكر الطراد وثغر الجهاد ومجرى الجياد وماوى الطريد
٢٩ بحيث تقابل شوسا بشوس وغرا بغر وصيدا بصيد
٣٠ واجسام احيائهم في النعيم وارواح امواتهم في الخلود

٧٥

وفي « مرثية صقلية » يقول :

١ لضرطويل الهم نجزي العرامسا وتطوي بنا اخفافهن البابسا
٢ وتذعر في البيداء عينا شواردا تذكر بالاحداق عينا اوانسا
٣ عذارى تركناها كما يترك الفتى مفاصله في معمعان وما نسا
١٣ ارى بلدي قد سامه الروم ذلة وكان بقومي عزه متقاعسا
٣١ . مشوا في بلاد اهلها تحت ارضها وما مارسوا منها ابيا ممارسا

٣٢ ولو شققت تلك القبور لانهضت اليهم من الاجداث اسدا عوابسا
٣٣ ولكن رايت الغيل اذ غاب ليثه تبختر في ارجائه الذئب مائسا

ولن نطيل بانواع جمال بنات قومه وفتنة شبابه وشاباته ومباهج الجزيرة وترفها وحفلاتها الغنية واوتارها الخافقة وراقصاتها القينات ومجالسها المنظمة الحفيلة لان لكل صنف من هذه المقاتن الخفيلة باب يخصه في ادبه الجليل وقد خصصنا كل صنف من ذلك ببحث توخينا فيه انتقاء طرائف ونوادر ما صورته عبقرية الشاعرة

■ ■ ■

وربما طال بنا المطال لو سرنا في تقليب ديوانه على هذا النحو او ابحنا لانفسنا ان نستعرض ما قاله علماء البلاغة في مثل هذا الفصل المعنى) . وانما هذا كله بالنسبة لوطنينا الموتور : تنهدة من نفس كبيرة مظلومة .

احن الى ارضي التي في ترابها مفاصل من اهلي بليـن واعظـم
كما حن في قيد الدجى بمضله الى وطن عود من الشوق يرزم ٢٦٩

واذا اظلم علي ابن حمديس ذلك العصر فلم يلق كبير من وطنيته السمحة في ظل الاسلام . فعسانا ان نتفهمه نحن الآن . برغم ان الدهر قد رمى الى محاولات جديده من توحيد العالم في ظل روابط عليا من غير الوطنية الاروبية التي ضاق الانسان بمصائبها على الحضارة ونواميس الرقي

جنة الدنيا وطنه

ينتهي به شيده بوطنه وحبه لجزيرته وما بلغته من نفس شاعرنا ان لا يذكرها الا كجنة الدنيا التي لن يكون لها مثيل . فهو دائم التسبيح بمحاسنها بما يحس من لوعة عليها

٣٢ ذكرت صقلية والاسى يهيج من النفس تذكارها
٣٣ ومنزلة للنصابي خلت وكان بنو الظرف عمارها
٣٤ فان كنت اخرجت من جنة فاني احدث اخبارها

وهي من قصيدة « الفردوس » التي اصبحت اشهر قصائده التي تناقلها الحفاظ والنقاد . مع التهليل والتكبير . في جميع الاجيال والامصار . من اقطار العربية المترامية من اقصى الشرق الى المغرب الاقصى . وهي تمتاز بتصور رائع لصقلية الحبيبة بما لا نظير له ويقصر عنه التوصيف . ومما يرجو المومنون توفره في عليين وما ادراك ماعليون

وفي مقابل ذلك فانه يرى خرجته من الوطن حادثا لا يقل في نفسه عن هبوط ءادم ابى البشرية عن جنة الرضوان . وهو يخبر ويعبر عن ذلك في كل قصيد من مثل قوله :

ان الخطوب طرقتني في جنة اخرجتني منها خروج المذنب

—٥—

وانتهى كل ذلك بانعقاد مزيج غريب في نفسه وخلوده في ادبه

يتركب من الشيخوخة المرتعشة وعنفوان الشباب ومن الوطنية المفادية والغرام العذري الذي يلهو عن الاجسام بالطيف كما نرسم منه ونترنم في بابه . وحسبك ان تتملى منه هنا بمثل قصيدته التي يقول فيها :

٤١ واذكرتني عهد الشباب الذي مضى ... لبردي فيه بالتنعم اسبال
٤٣ ودار غدونا في حماها ولم نرح ... ونحن اليها بالعزائم قفال
٤٤ بها كنت طفلا في ترعرع شرتي ... الاعب ايام الصبا وهي اطفال

حتى يختمها بقوله :

٦٦ الا حبذا تلك الديار واهلها ... ويا حبذا منهم رسوم واطلال
٦٧ ويا حبذا منهم تنسم نفحة ... تؤديه امحار الينا وماصال
٦٨ ويا حبذا الاحياء منهم وحبذا ... مفاصل منهم في القبور واوصال
٦٩ ويا حبذا ما بينهم طول نومة ... تنبهني منها الى الحشر اهوال

الامل

انما ارتئي ان ارجع بقرائي الى مطلع هاته القصيدة لنتقلب معهم ونتملى جميعا من معني قد صاغه له الدهر في تلك الصدمة المادية القاطعة . مع ان نفس صاحبكم الجبار لا تعرف اليأس من العروبة الكرارة الدوءوب . فنفسه من حلفاء الامل والعمل . ومن النفوس التي تعيش علي الاحلام السامية والمساعي . لن يعرف التثبيط لنفسه طريقا يخلد بها الى جحيم اليأس . لذلك تراه — وهو شيخ — يفتتح ذكرياته الوطنية بحادثة الكاعب جمل وما فتحت على نفسه من تفاؤل :

١ اجمل على بخل الغواني اذ مالوا تفاءلت باسم لو يصح به الفال
٢ وحليت نفسي بالاباطيل في الهوى ونفس تحليها الاباطيل معطال
٣ ولا بد من امنية تخدع الفتى وتطرق منها — بالتعلل — آمال

(٢٣٨)

فالنفوس الكبيرة المثرثة تستكشف ملكوتا من محاط الامل البعيد وتسمو بالطموح الى المعالي التي لا تستشرفها الابصار المادية المحدودة بالظلال . وترى تلك البصائر ما لا يشيمه الا كهين من الموفقين . وليس المهم بعد ذلك — لدى اولي العزم . الا ان يكونوا قد سعوا وابلغوا النفس عذرها . في الساعة التي يكون فيها اصحاب النفوس الخاملة قابعين في كسر بيوتهم راتحين تحت اليأس

فترى شاعرنا يراودك - ملا ديوانه - على تربية وعلى اصطناع هاته النفس الطامحة ذات الاحلام والامال ويصف لك طريق اكتسابها - كما يفعل الصوفيون - لاطفاء القوات الباطنة . حتى تستوعب الحس وتسمو بالنفس عن آلام الجسد. بفضل تغذية الروح وانماء خصائصها وتقوية عناصرها . وكذلك يفعل القادة فيهيئون منشطات الجند بالموسيقى الحربية وبترويج موجات من الاخبار المغذية وبتكوين آمال غريبة ربما كانت من توافه الاشياء . مثل اقراص صغيرة من المعدن يوزعونها بين من يلقون بانفسهم ويستبسلون في اطاعة قادتهم . يسمونها اوسمة ... وغير ذلك من الرموز والدوافع الاصطناعية ولكن مجموع ذلك يكون رياضة عامة ويتنا بها اندفاع جبار يستهين بالحياة ويغطي على حب السلامة الذي هو من نواميس العمران .

وهو يعرف ان النفوس القانعة والتي لا تطامح لها انما هي نفوس ميتة لا قيمة لها في تكوين المستقبل وتقويم سيرة الحياة . كالارض الغامرة وكالشبح البسو والجسم الخالي لن يقصده مشتار . وكالبلد القفر لن يرجوه تاجر ولا خطيب ... ما دامت نفوسا قد فقدت اكسير الحياة ومبعث السعي والدأب . من الطمع السامي والطموح الدائم .

٣ معالم اضحت من دماها عواطلا فقل في نفوس قد هجرن المطامعا!
٤ وقينا بميثاق العهود لربها كان عهود الربع كانت شرائعا

١٢ امات ربوع الدار فقدان اهلها فابصرت منها الاهلات بلاقعا
١٩٣

فنفس قد خلت من المطامع والاحلام لهي نفس خراب لا خير فيها في فرعة التكوين

— ٥ —

ومما نستحضره هنا عن مجد الطموح والمطامع مع مناظرتها بالزهد . ما كتبه ابو عثمان الحداد من اشهر رجال المجد في القيروان وكتاب مجالس المناظرة في القرن الثالث . قال «قدمت من طرابلس فكنت في قافلة فيها سبعون حملا بزا من حرير البصرة . وجميع ما في الرفقة من الجمال والحمال والاحمال ملك رجل واحد هو فيها معنا راكب على حمار محزوم الوسط بمنطقة وكان يستظل بظل محملي . يقال له ابو عوانة . وقال لي يوما : يا ابا عثمان . ما يقول اصحابكم اصحاب الحديث ؟ انهم يقولون : القناعة غنى لان الانسان اذا قنع بما في يده استغنى عما في يد غيره . ولكن اصحابنا السدادين يقولون : القناعة فقر . لان من تقنع لم يطلب ومن لم يطلب لم يكسب ومن لم يكسب فهو فقير ! » اهـ .

وفي كتاب الحياة « ان عدم الكسب عجز . والطموح سر الرقي وقال غيره .

شباب قانع لا خير فيه وبورك في الشباب الطامعين

مذهب الحزم

ولا تظنه مغمورا في استقراب النتائج واستسهال الظفر • فانه اعرف الناس بان المساعي الجادة قد لا يتفق لها الظفر • ولكن الخيبة — بكلاحة طلعتها — لن تهم هاته النفوس الناصبة العاملة ولن تخيفها ٩ فان لم تفز فوز المحبين بالمنى فقد نلت من برج الصبابة ما نالوا ٢٣٨

ولعمرك • انه مذهب الحزم • يرى ان السعي واستفراغ الجهد سعادة ورضا لان راحة قلبه في تحريك بدنه واجهاد الطينة

وطفنا في البلاد طواف قوم يريح نفوسهم تعب الجسوم

وهي بيت يحسن ان يترنم بها ابناؤنا اليوم من فرق الكشافة للشباب • واولي العزم من هذا البشر السامي لن يخلد لطبيعة المادة التي تسكن لكل مستقر او تهوي مع كل منخفض كالماء والحجارة • فنفوسهم معتلجة لها طبيعة النار الشابة تتجه بطبعها الى التعلق والى العلو والى التسامي • ولن يقضي عليها الا الفراغ المطلق واختناق المنافس من مقوماتها الذاتية • لانها من نواميس التحول العلوي بينما غيرها • من النفوس الطينية • اللزبة الملتصقة • والتي تكسل عن الحركة وتخاف التحول والتطور وتتهيب حركة الانشاء والافتراع والتكوين ••• لم يهبهم الله ميزات الخلق الكامل ولا طبعتهم الحياة بميسم التطور • فهم مجبولون عن الاستلام للسكون

والخمود حتى انهم ليسمونه « راحة » بينما شاعرنا يصارحك ان راحته باتعاب جسمه في سواء السبيل . والكد نفسه غنم . وتصريف للحياة الذي يجد به التملي والسعادة العليا .

٣٢ وان الميت في طلب المعالي كمن نال المنى منها وغابا
٣٣ وكنا في مواطننا كراما تعاف الضيم انفسنا وثابا
٣٤ صبرنا للخطوب على صروف اذا رمي الوليد بهن شابا
٣٥ ولم تسلم لنا الا نفوس واعراض نكرمها احتسابا
٣٦ ولم تخل الكواكب من سقوط ولكن لا يبلغها التترابا

وبهذه الروح نلقاه عاملا حتى آخر لحظة . كاملا . لن يدركه اليأس من العروبة . وهذا ديوانه يدوي بالعزمة العروب التي لن تفل روحها . وان صدت الجسوم .

* — *

على اني قد قدر لي ان شهدت لمثل هاته العزيمة حادثتين في حقبة واحدة من الحرب الاروبية الثانية . ذلك ان انكلترا قد خسرت موقعة برقة ١٩٤٢ وارتدت حتى « العالمين » على ابواب الاسكندرية . واطاعت سلطانها الممتد على جميع البحر المتوسط . فوقف وزيرها تشرشل يقول في مذياعها بامواج الكهرباء الصوتية يعلن للعالم : « لقد خسرنا سيادتنا في البحر المتوسط . ولكننا سنعود ونفتتحه من جديد » . وكان ذلك سنة ١٩٤٢ . فلم تكد تنقضي السنة حتى كانت قوات الحلفاء تنزل المغرب الاقصى وتلتهم الجزائر

وتغرس السيادة من جديد في البحر المتوسط . ثم كان الفصل الثاني اذ خسر موسوليني الموقعة بدوره في طرابلس ثم انسحبت قوات المحور يوم ١٠ مايو واسلمت من تونس اخر نقطة لها فوقف موسوليني في مذياعه برومة ليشهد العالم هو ايضا عن قوة ارادته « لقد اسلمنا افريقيا اليوم وانسحبنا منكفئين . ولكننا ناخذ على انفسنا عهدا باننا راجعون » . انما موسوليني لم يرجع الى تونس ولن يرجع اليها لان انكلترا قد تسنى لها ان شهدت موته بايدي اخوانه المنشقين عليه . وذلك لسنة واحدة من كلمته وعهده المقطوع بينما تشرشيل قد فاز بما امل وهو على راس قومه . ومع ذلك فنحن نرى حلفاء موسوليني في رومة يعملون جهدا لا يعرف التثبيط لكي يعودوا لمراكزهم من افريقية ! .

اما شاعر الاسلام وبطل سرة البحر المتوسط ابن حمديس فقد رايته ينادي عن صقلية من صفاقس (١) باسم العرب والحضارة « وانا اليها بالعزائم فقال » ثم ابقاه دينا في عهدة عزمات يعرب ان يسددوه لتحقيق التكافل والسلام في قناة صقلية التي كانت في عهدها العربي درة حضارة وموئدة . وكعبة اداب وفنون وصناعة . ثم هي قد انحطت مذ برحها العرب . وما زالت تهتف بالانسانية ان ترد اليها

---

(١) صفاقس بسين اولا وسين اخرا . كذلك كانت تكتب ، وهو خلاف كتابتها اليوم بالصاد اول الحروف .

ما حرمتها منه بدوافع الحروب الصليبية وضغائن التعصب في قرون اوربا المظلمة . فما هي الا عمران افريقي عند ما جاءها الانسان الاول من افريقيا بينما كانت « الارض الكبيرة ـ كالاباريا » احراثا نائمة لم تتعدع جمتها يد الانسان . فالصقلي الذي نراه اليوم منحطا . قد كان في ايام اتصاله بامه ومعدنه افريقيا ينتج للبشرية الحضارة وينتج العباقرة من مثل ابن حمديس وهو سيتعش ويخضر ويثمر بمجرد اسناده من جديد لصدر امه وعصوره بدفئها الحنون . واذاك فقط يرتكز امن البحر المتوسط وتقوم ابرة ميزانه .

لذة الكد

انما عبد الجبار يمثل لنا « الانسان الكامل الحيوية » الذي تغلب شطره الانساني على شطره الجثماني المادي من حيونيته السامية ! يسعى لتطوير الحال ولعلاج ما هو فيه بالتقلب . تقلبا فيه استجابة للحال وفيه تطلب لمثاله الاعلى ! .

وهو لا يستسلم للكسل . بل ان نفسه الشابة لتوب التوثب لتملان ذلك التقلب عظمة بما فيهامن جهد لا يني وبما نراه عليه من اضناء للنفس في علاج كل ظرف وكل حال .

افي ذلك الجهد لذته ؟ لمجرد ان ترى نفسه سعيها الخالص واجتهادها الخالص ... فتطيب ! فالاجتهاد والعمل بالهامه هما لذته ورضاه او هما جبلته وسلواه .

فهو من النفوس التي توثر الاقدام والحزم . ولن تخلد الى استمار المتوفر — على عواهنه — فلا استسلام ولا ركود .

هو من النفوس التي لا يخيفها التعب . من طينة سامية تميت الالام النازلة عليها بالام اخرى تقدم هي على مكابدتها وصراعها وتعالج الصعود — دائما — الى الاعالي . فتسلق الصخور الحادة المكاسر مهما كانت منهكة وقاسية . كما قاله ابو القاسم الشابي شاعرنا التونسي الحديث :

ومن لم يعاني صعود الجبال يعش ابد الدهر بين الحفر

وكانما ترى ابن حمديس يستمد من انهاك قواه عزاء نفسه والرضا • بل هو يقرر لنا هذا في كل مناسبة حتى يقول في توصيف جده ورحلته في ظلم الليل :

١٤ قطعنا تحت غيهبه عراء بعارية العظام من اللحوم
١٥ ودامية مناسمها رسمنا لها قطع المهامه بالرسيم
١٦ وطفنا في البلاد طواف قوم يريح نفوسهم تعب الجسوم ١٨٣

فاعظم بها من نفوس قد سخرت الاجساد لتعلي على نصبها الكمال البشري المتدس • طامحا للمعالي عازما على الكمال متطلعا للجلال • عزوفا عن الركود والضعة والتفسخ والانحلال •

* ( ) *

بل لقد حلت المحاولة والكد مكان الفوز حتى صارت تطيب بمجرد انهاكها في مكابدة المساعي ! •

وهذا — لعمرك — سمو في النفس وتطوح في الهمة عما تواضع عليه الغمر عموما من تحمل المشاق قصد البلوغ الى فصل الراحة كالهر يسعى جهد حيوانيته ليشبع • حتى اذا امتلات امعاؤه التوى حتى ليدس انفه تحت ذنبه ملتفا على نفسه خلودا واستغناءا وانما هم هؤلاء اخماد لوثة الم جسدي يصور منهم الحزم • بينما هذا الصنف العزيز لم يكن همه هم هذا الحيوان البدائي بل همه تصريف القوات البشرية في مطالب الكمال

والسمو . وهي صفة النفس التواقة لا تخمد بالجسد الا بمفارقة الروح

• ▲ •

ولعل من طرائف كماله في تلك العزيمة المفادية ما استعرضه لنا من موقف فراقه لزوجته في سفاقس . وهو كما وصلوا من صقلية . وهو لم ينقه من ضنى حرب العصابات والكمين في المثلث الصقلي الصغير . وعمته الحدوبة عليه وعلى ابنتها زوجته وقد وصلا اليها بالسلامة ــ تفسح اليه من البيت والجنان باعظم ما تملك من ترحيب وتحبب وترغيب يتجسس على فرحة بالسلامة من الهول الخطير . فتملا ابنتها الحامل هناء وطمانينة ودل . واذا بعبد الجبار قد وصل اليه عناصر الذين تشتتوا من فرقته « بني الثغر » . وحدثوه بمواقع اندلس الكبرى وترامي الصليبيين على شواطئها المسالمة .

فاذا به قد عزم . واذا به يدخل اليها مودعا لمتابعة اعداء وطنه . ليمنعهم اعتداء جديدا اخذوا في اقترافه على ارض الاسلام . وهي تتشبث به وهي تمانعه . وهي تثنيه وتكسر من همته بهواها وحبها النسائي ! فاذا بكبريائه يغطي كل شيء ويطغى على كل شيء :

٤ خذ العزم من برد السلو فانما هوى الغيد عندي للهوان نسيب
٨ وان ضاق بالحر المجال ببلدة فكم بلدة فيها المجال رحيب
٩ اذا انت لبيت العزيمة واضعا لها الرجل في غرز فانت لبيب

• ▲ •

١٠ ومنكرة مني زماعا عزمته عدوك يا هذي الي حبيب !
١١ جرى دمعها والكحل فيه كانه جمان بماء اللازورد مشوب
١٢ وقالت : غرابيب درجن بينه ستستدرج الاعوام وهو غريب !

١٣ فما كان الا ما قضى بالهابه فهل كان عنها الغيب ليس يغيب؟
١٤ القدخمس: التاويب والعزم والسرى وعود الفلى: عود عليه صليب ٢٩

فاعجب لعوده — وهو حصانه الفاره — الذي يركبه هذا المريد الصليب — في عزيمته — كيف يكون خامسا للمعتويات الاربع التي اسماها: من ١ عيادة الفلوات و٢ اسراء الليل و٣ العزيمة و٤ التاويب في مواصلة رحلة النهار، كانما «آلته الحيوانية» قد ارتقت الى المعنويات بمجرد ان ركبتها تلك العزيمة الصلبة!

وتجده يراود الشيان غيره — طيلة عمره — كان لم يتحمل شيئا:

٢٤ خذ برايي في زماع واصل طرفيه بسفين وركاب
٢٥ واغترب وارج المنى كم من فتى معدم نال المنى بعد اغتراب
٢٦ ان اتراح النوى يعقبها بجزيل الحظ افراح الاياب ٣٧

الاغتراب

ان الروح التي هاجر بها ابن حمديس عن جزيرة صقلية ، انما هي ابباء الضيم واستنكار الجبروت واستنكار التحكم والاعتداء الذي جاءت به تلك الموجة الصليبية ، من فرض الانسان استعماره على اخيه الانسان في عقر داره ، ليفسد عليه نظامه الاسلامي الراقي وقوانينه المشرعة السامية وءادابه ولغته التي سبكتها التصانيف وخلدتها النواميس ، بينما كان المهاجم — في الواقع — فاقدا لكل تلك العناصر الحضرية ، انما قوته في كثرته وفي غرته وفي اندفاعه الجديد بما ينفثه فيه الرهبان من تعصب اعمى يرمي به من شمالي المانيا وشواطىء البلطيق الجامد الى حرارة هاته المياه المتماوجة ، ليغتصب ويكتسح ، عن غير خصومة ولامصلحة ولا تزاحم بين هوءلاء النرمان وحضارة العرب الاسلامية السامية ، اذن فقد هاجر ابن حمديس مع زمر الشباب الابي الى مفاقس والى اندلس ثم استقر في مفاقس نصف قرن كامل تحت الرعاية والجراية ومخصصات البلاط واحترام الدولة الى درجة ان يكون شفيع البلد اثر وحشة لها مع الملك الصنهاجي فيشفعه ويرد على مفاقس ميزاتها وكرامتها وعوائد رعاية نشاطها المتفوق ، كل ذلك ببركة شفاعة صاحبنا الشاعر الذي اصبح معدودا منها واليها ،

ومع ذلك فان نعرة الوطنية قد كانت قوية في قلبه ، وبذرة

الحسرة قد كانت حافظة لعناصر حياتها في طي فؤاده . حتى لا يعد نفسه الا غريبا . وهو بين بنيه واخوانه واوليائه واصهاره وايمائه ومستبنياته وابناء المهاجرين الذين كان ياويهم بفضله واحسانه وشفقته وتكافله وحسرته على جنته الضائعة مقلية .

فما نكاد تراه ينسى . وما يكاد يستغني . ولن تغرب عن ذهن مطالع ديوانه انه متغرب مشرد عن وطنه الجميل :

انا من صاح به يوم النوى عن مغانيه غراب فاغترب

ومهما رايناه منغمسا في اللهو وممارسة غي الحياة والاغراق في الاقبال على الخمور والنساء . . فان اقل اصطدام يكشف القشرة الغاشية عن نفس موحشة لا تحس الا بالاغتراب والنزوح والبعد . فبعد اربعين سنة من هجرته يقول مرثية لبنية من المهاجرات ضمها لبناته ورباها تحت سقف ولائه ورافته .

٢٩ اراني غريبا قد فقدت غريبة كلانا مشوق للمواطن والاهل ٢٤٥

وبنفس هذا الشعور ينظر الى قبر عمته في سفاقس :

٢٨ غريبة قبر عن قبور بارضها مجاورة في خطة الطعن والضرب ٢٨

ويهاتف النفس يتنهد في كتبه لاخوانه واهله الذين يراسلهم

٢٦ انا يا ابن اختي ! لا ازال اخاسي حتى اوسد في الضريح وسادي

٢٧ اني امرؤ — مما ظرمت مهمهم بفراق اهلي وانتزاح بلادي

٢٨ اردى الغريب بعلة تعتاده بالكرب وهي غربة الرواد ١١٨

وسنخصص «تشرده» ببحث مهم ضمن دراستناها ته نستوعب فيه نواحي غربة من هذا المعلم الملي باهوال من مجاهل النفس البشرية الحنوان

حيث كان اهل رومة يخلقون من اسم مدينتهم دولة وجنسا . ويحتضنون لها لغة وءادابا وحضارة ويقتبسون لها دينا . فيفرضون هاته جميعا على القارة الاروبية دون ان يكسبوها جنسيتهم . لانهم يرون انفسهم عنصرا قائما بذاته . فهاته ربما كانت عاملا خفيا قد اعان على تجسد حقيقة الوطنية التي تفرد بها شاعرنا النابغ .

الوطن

بين توحيد المجتمع واثارة الحروب

مع ملاحظتنا ان العاطفة الوطنية على معنى التعصب لموطن ينتمي له الانسان فيحدب عليه ويخصه بالعصبية ويقاتل من اجله الذين عرف اذا احس منهم بالعدوان عليه . ويركن من اجله لمن لم يصادق من هاته العصبية الوطنية ... فهي عاطفة غريبة عن الاسلام . ومازال مهاجرو تونس ينسون انفسهم في بغداد والقاهرة والمدينة . ونعد مصطفى خزنه دار من اعظم وزراء تونس وهو يوناني . وغاغة بطل بحرها وهو عثماني . ويعد العثمانيون خير الدين باشا من رجالهم وصالح الشريف من ابطالهم كما ان الخذر بن الحسين قد اصبح من هياة علماء مصر الذين تفخر بجهدهم الموفق وثلاثتهم من تونس .. لان الوطنية بمعنى التعصب للارض لم تقره الحضارة الاسلامية العاملة للوحدة البشرية والرقي الانساني . اذ (لا فضل لاعرابي على اعجمي الا بالتقوى) بنص ما سنه النبي محمد (صلعم) واندفع به الاسلام من جزيرة العرب يحتضن القبط والحبش والفرس والروم والبربر بما لا موقف عنده

ولكن شاعرنا ابن حمديس قد ولد على مقربة من منبع الوطنية .

٣ وهو «الحمى» سقيا لايام الحمى فانما وللت ولما ترجع
٩ وانما يبكي بكاي شجن ووجع يعرف فيه وجعي
١٠ لو انطق المربع ـ وهو اخرس ـ توجع انطقه توجعي ١٨٥

من ذلك قصيدته « حنين الوطن » التي يعرض فيها علينا موقفه مع الاخوان الذين يرحبون به في كل مكان ويوطنون له من الحياة اكنافا . بما يحسبون انهم يمسحون عن نفسه كل اثر من الوحشية . لانهم متوطنون على الوحدة الاسلامية العامة التي لا ترى التعلق بطينة الارض ولا بالجنس . لان القاعدة عندهم ان الانسان جنس واحد اختاره الله واعطاه الامانة الكبرى من العقل ليسود به الكائنات . والمسلمون يرون « ان المسلمين تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم » وهم وحدة اجتماعية لا تتقسم ووحدة نظامية لا يختلف تشريعها ولا نظامها ولا اخلاقها . وان اختلفت اقطارها والوانها . وهم يعملون لوحدة لغوية ويحسون بالتكافل البشري العام والتراحم وشرع المحبة بين افراد الانسان . والمسلم يتنقل في بلاد الاسلام كما يتنقل المالك في بيوته وفي اراضيه العامرة المنتجة .

— و —

وكانا بعبد الجبار بن حمديس قد كان بوطنيته هاته ظاهرة غريبة في ذلك المحيط الاممي الذي عقده الاسلام وحدة بشرية متآلفة متناغية حتى اذا وجدوا اتكماشة الغريب ووحشته الملازمة للنازح الطريد راجعوه في حزنه مع اينائهم ووجونه مع تقريهم ، « ما هي التربة الا ارض الله . وما نحن الا عبيده هنا وهناك . ونحن اخوان يحملك ما يحملنا ويبكك ما يبعنا » فيضيق ذرعه بالحقيقة الهائلة ويقول :

١ حتى متى يجزى الهوى بالاربع لوما ؟ فما امره عن مسمعي

٢ ويحك ! لو كنت وفيا لم تقل « ويحك . لاتبك لرسم بلقع . »

تمالج الاغراض العمومية الاخرى . قلم تهن عليه ان يتقرب بها لامير اندلسي او سلطان افريقي ولو كان من المجاهدين المدافعين ضد اعداء وطنه من الصليبيين الذين اغتصبوا ارضه .

وليس من المناسب ان ننقل هنا قصيدة كاملة او قصيدتين على سبيل الانموذج لان شرطنا في هاته الدراسات انما هو الخزل والاختصار والانتقاء والايجاز . وانما نقدم للقراء قائمة انموذجية من بعض تلك القصائد المطولة المفردة بالحنين الى الوطن موءلفة من رقم القصيدة في ترتيبنا لديوانه مع اسمها حسبما اعددناه للطبعة التي سنخرجها

٢ ـ الشباب والوطن
١٣ ـ جلد
٢٥ ـ الحنين
٢٧ ـ منية الطريد
٩٨ ـ نسيم صقلية
١١٠ ـ الفردوس
١٨٨ جلال وانين
٢٦٢ زفرات
٢٧٧ ذكريات
٢٦٩ قومي وبلادي
٢٧٩ الطريد
٢٨٢ دفين اغتراب

وهو في مختلف هاته القصائد قد احاط باوجه متنوعة وغريبة من حقائق الوطنية واوجه تقليبها . واستعرض من احاسيس ذلك الشعور كل شريف وبهيج

قصائدة الوطنية

بلغت الوطنية بصاحبنا ابن حمديس ان رايناه يشح بقصائده الوطنية عن ان تمزج بغيرها من الاغراض او تقدم لغير اخوانه من المهاجرين . انما تتبجس عنه اطياف وتنهدات ماهو على رجعها بقادر فمقاطيعه الوطنية منشورة في ديوانه نثرا قفيا فهو يصف للملك علي الصنهاجي حالة ابنائه الذين تركهم في سفاقس لحماية دولته يرجون اباهم كالعصافير المجردة من الريش صفر الملاقط تفتح افواهها كلما احست برفرفة طير بعيد تحسبه اباها فتلقاه باصواتها حتى اذا خاب فالها انكمشت من الخوف ... ويصف للملك حسن بعده يوم فراقه لزوجته الشابة وقد التف عنقهما الشابين واجهشت بالبكاء تشبث بالزوج ان لا يتغرب ويجازف بفرقتها ... ولكنه في جميع تلك المناسبات لن يقرع الاوتار الغليظة من عاطفته الوطنية فقصائده الوطنية منزهة عن ان تدمج في قصائد معانه واعابيث الحياة . بينما قصائده لصحبه وملوك عصره تجدها متوجه بالغزل ومضمخة بالخمور والحب والبذخ . او هي عامرة بالخيل وامجاد المواكب والفروسية ... من كل شيء .. غير وطنيته التي يعرفها شيئا خاصا به

او كانما هو كلما استغلظ وتر منها في ادبه افرده وزواه . كبرياء به وشحا بعاطفته ان تدخل سوق الحياة . باخذه وعطائه . او ان

٢٠ وراءك يا بحرتي جنة لبست النعيم بها لا الشقاء
٢١ اذا انا طالعت منها صباحا تعرضت من دونه لي مساء
٢٢ فلو انني كنت اعطى المنى اذا منع البحر منها اللقاء
٢٣ ركبت الهلال لها زورقا الى ان اعانق منها ذكاء ؟

ارايت هذا التوق والشوق والذوق الشعري الذي يسخر له من هلال السماء مطية حتى تاخذه الى حبيبته (صقلية) ليعانقها عناق الواله المفتون والمشتاق المحروم اذ اوتي متمناه .

٧ تعوذت ارضي ان تعود لاهلها فساءت ظنوني ثم اصبحت باسا
٨ وكيف وقد مسيت هوانا وصيرت مساجدها ايدي النصارى كنائسا
٩ لئن كان اعيى كل طب علاجها فكم جرب في السيف اعيى المداوسا
١١ صقلية كاد الزمان بلا دها وكانت على اهل السلم محارسا
١٢ فكم اعين بالخوف اضحت سواهرا وكانت بطيب الامن منها نواعسا
ارى بلدي قد سامه الروم ذلة وكان بقومي عزة متقاعسا

انما لمحنا له هنا من الناحية الوطنية البحتة لنلحظ قوة عاطفته في نفسه . والا فان اخوانه والكثير من غيرهم - الذين هاجروا ربما لم يوفقوا في اغترابهم توفيقه الذي استقر به في اندلس وفي افريقيا وتونس ولكنهم انطبعوا على مهجرهم وتوطنت نفوسهم على ما قسم لهم واستشعروا القرار والاستيطان والانس بما عوضوا . ناهيك بزميله ابي العرب الذي حاق به ما حاق باخيه شاعرنا . ودافع ما دافع . ثم انكفاء الى مهجره يقول :

الام اتباعي للاماني الكواذب وهذا طريق المجد بادي المذاهب
ويا وطني ان بنت عني فاتني سوء وطن اكوار العتاق النجائب
اذا كان اصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين اقاربي

بينما شاعرنا الوطني لا يترك حب الوطن بدعوى وحدة العالم وفلسفة الاشتراك في الانسانية والاخوة العالمية . بل تراه جاثما في شيخوخته على طرف من القارة الافريقية الكبرى يتنسم ريح جزيرته ويرثيها في قصيدته التي يرثي بها الاعزين (الشباب والوطن) :

١١ ويا ريح اما مريت الحياة ورويت منها الربوع الظماء
١٢ فسوقي الي جهام السحاب لاملاهن من الدمع ماء
١٣ ولا تغطشي طللا بالحمى تداني على مزنه او تناء
١٦ ولا تعجبي فمغاني الحمى يطيب بطيب ثاراها الهواء
١٧ ولي بيتها مهجة صبة تزودت في الجسم منها ذماء
١٨ ديار تمشت اليها الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء
١٩ صحبت بها في الغياض الاسود وزرت بها في الكناس الظباء

انما لمحنا له هنا من الناحية الوطنية البحتة لنلحظ قوة عاطفته في نفسه . والا فان اخوانه والكثير من غيرهم - الذين هاجروا ربما لم يوفقوا في اغترابهم توفيقه الذي استقر به في اندلس وفي افريقيا وتونس ولكنهم انطبعوا على مهجرهم وتوطنت نفوسهم على ما قسم لهم واستشعروا القرار والاستيطان والانس بما عوضوا . ناهيك بزميله ابي العرب الذي حاق به ما حاق باخيه شاعرنا . ودافع ما دافع . ثم انكفأ الى مهجره يقول :

الام اتباعي للاماني الكواذب وهذا طريق المجد بادي المذاهب
ويا وطني ان بنت عني فاتني سوء وطن اكوار العتاق النجائب
اذا كان اصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين اقاربي

بينما شاعرنا الوطني لا يترك حب الوطن بدعوى وحدة العالم وفلسفة الاشتراك في الانسانية والاخوة العالمية . بل تراه جاثما في شيخوخته على طرف من القارة الافريقية الكبرى يتنسم ريح جزيرته ويرثيها في قصيدته التي يرثي بها الاعزين (الشباب والوطن) :

١١ ويا ريح اما مريت الحياة وروّيت منها الربوع الظماء
١٢ فسوقي الي جهام السحاب لاملاهن من الدمع ماء
١٣ ولا تعطشي طللا بالحمى تداني على مزنه او تناء
١٦ ولا تعجبي فمغاني الحمى يطيب بطيب ثاراها الهواء
١٧ ولي بيتها مهجة صبة تزودت في الجسم منها ذماء
١٨ ديار تمشت اليها الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء
١٩ صحبت بها في الغياض الاسود وزرت بها في الكناس الظباء

٢٠ وراءك يا بحر لي جنة لبست النعيم بها لا الشقاء
٢١ اذا انا طالعت منها صباحا تعرضت من دونه لي مساء
٢٢ فلو انني كنت اعطى المنى اذا منع البحر منها اللقاء
٢٣ ركبت الهلال لها زورقا الى ان اعانق منها ذكاء ؟

ارايت هذا التوق والشوق والذوق الشعري الذي يسخر له من هلال السماء مطية حتى تاخذه الى حبيبته (صقلية) ليعانقها عناق الواله المفتون والمشتاق المحروم اذا اوني متمناه .

٧ تعوذت ارضي ان تعود لاهلها فساءت ظنوني ثم اصبحت باسا
٨ وكيف وقد بيعت هوانا وصيرت مساجدها ايدي النصارى كنائسا
٩ لئن كان اعيى كل طب علاجها فكم جرب في السيف اعيى المداويا
١١ صقلية كاد الزمان بلابدها وكانت على اهل الذمام محارسا
١٢ فكم اعين بالخوف اضحت سواهرا وكانت بطيب الامن منها نواعسا
ارى بلدي قد سامه الروم ذلة وكان بقومي عزة متقاعسا

قصائدة الوطنية

بلغت الوطنية بصاحبنا ابن حمديس ان رايناه يشح بقصائده الوطنية عن ان تمزج بغيرها من الاغراض او تقدم لغير اخوانه من المهاجرين . انما تتبجس عنه اطياف وتنهدات ماهو على رجعها بقادر فمقاطيعه الوطنية منشورة في ديوانه نشرا قنيا فهو يصف للملك علي الصنهاجي حالة ابنائه الذين تركهم في مفاقس لحماية دولته يرجون اباهم كالعصافير المجردة من الريش صفر الملاقط تفتح افواهها كلما احست برفرفة طير بعيد تحسبه اباها فتتلقاه باصواتها حتى اذا خاب فالها انكمشت من الخوف ... ويصف للملك حسن بعده يوم فراقه لزوجته الشابة وقد التف عنقهما الشابين واجهشت بالبكاء تشيث بالزوج ان لا يتغرب ويجازف بفرقتها ... ولكنه في جميع تلك المناسبات لن يقرع الاوتار الغليظة من عاطفته الوطنية فقصائده الوطنية منزهة عن ان تدمج في قصائد معائه واعابيث الحياة . بينما قصائده لصحبه وملوك عصره تجدها متوجه بالغزل ومضمخة بالخمور والحب والبذخ . او هي عامرة بالخيل وامجاد المواكب والفروسية ... من كل شيء .. غير وطنيته التي يعرفها شيئا خاصا به

او كانما هو كلما استغلظ وترمنها في ادبه افرده وزواه . كبرياء به وشحا بعاطفته ان تدخل سوق الحياة . باخذه وعطائه . او ان

تمازج الاغراض العمومية الاخرى . فلم تهن عليه ان يتغرب بها لامير اندلسي او سلطان افريقي ولو كان من المجاهدين المدافعين ضد اعداء وطنه من الصليبيين الذين اغتصبوا ارضه .

وليس من المناسب ان ننقل هنا قصيدة كاملة او قصيدتين على سبيل الأنموذج لان شرطنا في هاته الدراسات انما هو الخزل والاختصار والانتقاء والايجاز . وانما نقدم للقراء قائمة انموذجية من بعض تلك القصائد المطولة المفردة بالحنين الى الوطن موءلفة من رقم القصيدة في ترتيبنا لديوانه مع اسمها حسبما اعددناه للطبعة التي سنخرجها

٢ ـ الشباب والوطن	١٨٨ جلال وانين
٦٣ ـ جلد	٢٦٢ زفرات
٢٥ ـ الحنين	٢٧٧ ذكريات
٢٧ ـ منية الطريد	٢٦٩ قومي وبلادي
٩٨ ـ نسيم صقلية	٢٧٩ الطريد
١١٠ ـ الفردوس	٢٨٢ دفين اغتراب

وهو في مختلف هاته القصائد قد احاط باوجه متنوعة وغريبة من حقائق الوطنية واوجه تقلبها . واستعرض من اعاجيبها ذلك الشعور كل شريف وبهيج

من ذلك قصيدته « حنين الوطن » التي يعرض فيها علينا موقفه مع الاخوان الذين يرحبون به في كل مكان ويوطنون له من الحياة اكنافا . بما يحسبون انهم يمسحون عن نفسه كل اثر من الوحشية . لانهم متوطنون على الوحدة الاسلامية العامة التي لاترى التعلق بطينة الارض ولا بالجنس . لان القاعدة عندهم ان الانسان جنس واحد اختاره الله واعطاه الامانة الكبرى من العقل ليسود به الكائنات . والمسلمون يرون « ان المسلمين تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم » وهم وحدة اجتماعية لا تتقسم ووحدة نظامية لا يختلف تشريعها ولا نظامها ولا اخلاقها . وان اختلفت اقطارها والوانها . وهم يعملون لوحدة لغوية ويحسون بالتكافل البشري العام والتراحم وشرع المحبة بين افراد الانسان . والمسلم يتنقل في بلاد الاسلام كما يتنقل المالك في بيوته وفي اراضيه العامرة المنتجة .

— و —

وكاننا بعبد الجبار بن حمديس قد كان بوطنيته هاته ظاهرة غريبة في ذلك المحيط الاممي الذي عقده الاسلام وحدة بشرية متآلفة متآخية حتى اذا وجدوا انكماشه الغريب ووحشته الملازمة للنازح الطريد راجعوه في حزنه مع اينانهم ووجوفه مع تقربهم . « ما هي التربة الا ارض الله . وما نحن الا عبيده هنا وهناك . ونحن اخوان يحملك ما يحملنا ويبعث ما يبعثنا » فيضيق ذرعه بالحقيقة الهائلة ويقول :

١ حتى متى يجزى الهوى بالاربع ... لوما ؟ فما امره غدا بمسمع

٢ ويحك ! لو كنت وفيا لم تقل ... ويحك . لاتبك لرسم بلقع .

٣ وهو «الحمى» سقيا لايام الحمى فانما وللت ولما ترجع
٩ وانما يبكي بكاي شجن ووجع يعرف فيه وجعي
١٠ لو انطق المربع ـ وهو اخرس ـ توجع انطقه توجعي ١٨٥

الوطن

بين توحيد المجتمع واثارة الحروب

مع ملاحظتنا ان العاطفة الوطنية على معنى التعصب لموطن ينتمي له الانسان فيحدب عليه ويخصه بالعصبية ويقاتل من اجله الذين عرف اذا احس منهم بالعدوان عليه . ويركن من اجله لمن لم يصادق من هاته العصبية الوطنية ... فهي عاطفة غريبة عن الاسلام . ومازال مهاجرو تونس ينسون انفسهم في بغداد والقاهرة والمدينة . ونعد مصطفى خزنه دار من اعظم وزراء تونس وهو يوناني . وغاغة بطل بحرها وهو عثماني . ويعد العثمانيون خير الدين باشا من رجالهم وصالح الشريف من ابطالهم كما ان الخذر بن الحسين قد اصبح من هياة علماء مصر الذين تفخر بجهدهم الموفق وثلاثتهم من تونس .. لان الوطنية بمعنى التعصب للارض لم تقره الحضارة الاسلامية العاملة للوحدة البشرية والرقي الانساني . اذ (لا فضل لاعرابي على اعجمي الا بالتقوى) بنص ما منه النبي محمد (صلعم) واندفع به الاسلام من جزيرة العرب يحتضن القبط والحبش والفرس والروم والبربر بما لا موقف عنده

ولكن شاعرنا ابن حمديس قد ولد على مقربة من منبع الوطنية .

حيث كان اهل رومة يخلقون من اسم مدينتهم دولة وجنسا ٠ ويحتضنون لها لغة وءادابا وحضارة ويقتبسون لها دينا ٠ فيفرضون هاته جميعا على القارة الاروبية دون ان يكسبوها جنسيتهم ٠ لانهم يرون انفسهم عنصرا قائما بذاته ٠ فهاته ربما كانت عاملا خفيا قد اعان على تجسد حقيقة الوطنية التي تفرد بها شاعرنا النابغ ٠

الوطنية كناية الاخلاص والمجد

فلنختم دراستنا هاته عن « الوطنية في ادب ابن حمديس » بقلب صحيفة هاته الوطنية • التي رايناها — الى حد الان — حقيقة يحددها وجوهرا يتشبث به ويقرره على الحياة •

واذا به يفيض منها معلما ينير به غيره من المعاني ويعرفه به فالوطن الذي عرفه للناس وفرضه على لسان العرب • تراه عميقا في نفسه واضح الدلالة على التعلق والاخلاص • وانما نلحظ ان استعماله لذلك كان في مخاطباته لنفسه وفي مخاطباته لذويه من المهاجرين الذين كان لهم من هاته الوطنية المرزوءة « شجن كشجنه » او على حد قول جحا لامه عند ما سقط من درجة السلم فلزم الفراش ولم يجد عذيرا « لا تدخلي علي عائدا الا اذا كان قد ذاق سقطة الدرجة • مثلي » • وهكذا تراه لا يجد تشبيها يعبر به لصهره الحكيم في مدينة سفاقس • الا بالحنين الى الوطن في النفس المرزوءة

٤ لقد حنت الى مشواك نفسي كمرزاة الى وطن تتوق ٢١٥

فما اعمق التعبير وما ابلغ ما في نفسه ! وما ابلغه في ان لا يعبر بمثل هذا الا لابن عمه واخوانه المهاجرين والمهاجرات الاحياء فانظره كيف يتصور صموده وتشبثه بارض الوطن — لو اتيح له العودة اليه — ••• وانما ساق ذلك في معرض مغازلته حبيبته الصقلية الواجفة • يصور لها مبلغ اخلاصه وكتمانه لسر هواهما :

٦ يقر قرار السر عندي كانه غريب ديار قال في وطن حسبي ١٨

٢٨ اني دُفعت الى هواكِ وغربةٍ

هتفت بها العزمات والاسفار

٢٩ وغرست عمري في الزماع فرزت

لقمي جناه نجائبٍ وقفار

٣٠ وجعلت داري في النوى ، فؤانسي

وحش الفلا وعجالسي الاكوار ١٤٤

---

٢٧ خرج ابن حمديس من صقلية لاسناً بوطنيته الافريقية سنة ٤٧١ هـ ١٠٧٩ في ظلمة الغزو الهلالي لصقلية

٢٩ مصدر : عزم على الرحيل . الحنى : ما من شأنه ان يجنى من ثمار والناضجة للنضرة . النجائب مفرده نجيبة : الفارهة من الرواحل

٣٠ النوى : المفارقة والابتعاد ! الاكوار . مفرده الكور : (بضم الكاف) رحل البعير بأدواته

بين التشرد والاغتراب عن الوطن

اما وقد قصر المجتمع الاسلامي في القرن الخامس (٤٧٠ هـ) عن ان يرد غارات النرمان الذين جاء بهم الروم . فقد راينا ابناء جزيرة صقلية ينتشرون متشتتين لاجئين عند اخوانهم المسلمين العرب بين الاندلس والمغرب وافريقية ومصر والمشرق

٢٨ بقية احبابي الذين جوتهم مضاجع لم يضجع بها لمنام
٣٠ تفرقتم للبين في كل وجهة تثير جمان في انقطاع نظام

---

٣٠ ـ (البين) الغربة والتباعد ـ (الجمان) للؤلؤ (النظام) خيط من حرير يلون شعر الغانية او يفتل من نفس شعرات من راسها تعطي للماشطة تسلك فيه الجواهر المطلوبة لزينة بعينها حتى تشد به الصبية لة شعرها . وقد نشا مع تلك الحضارة الباذخة ذوق رفيع لشدات غريبة قد يصور منها هيكل سماء في ليلة نيرة او برج بعينه من الثريا او غيره من رموز السعود . وقد يشد به الشعر على هيأة مدينة حرب . فما يتلاءم مع حفلة رجوع الاسطول منتصرا مما تنتقه الحيلة ويباتي به ذوقهن السليم في الملابسات والمناسبات او يصبح شدة اتباعية فهي حلية بسيطة قد تصبح اثمن حلية عند المترفين الذين ينفقون على المواشط الصناع : والقينات الشهيرات . بحيث كان لها فنانات اختصاصيات نظير ما بلغناه بجيلنا من وجود حنانات متخصصات في نقش ايدي الغواني بصباغ الحناء نقشا فنيا يعشن به في معة ورغد بين عائلات المدينة وبين عائلات القرية . ورايتا عائلات يختصصن بحنانة بل رايتا غانية تختص بماشطة تسهر على تدبير زينتها . وان امتلاء ديوان ابن حمديس بالحديث على شدات الشعر ليدلنا على ما بلغته الحضارة الصنهاجية من الرفعة والبذخ والذوق . هي لا تقل سجادة عن وطنيتهم وجدهم . وهي صنو قرين لحضارتهم الصناعية وهمتهم .

٣١ فحرب يكف الدهر عنه عزيمتي وحزب ترد الروم عنه مرامي
٣٢ ساعطي بشيرا قال لي قد تجمعوا ثواب صلاتي طائما وصيامي
٣٣ وارقب يوما فيه بالوصل تلتقي بجام دموع بيننا بسجام

***

٣٤ متى اتكم ينشر لكم من ضريحه دفين اغتراب لا دفين رغام! ٢٨٢

٣١ ــ صدر البيت (حرب) ويعني به معامع الحروب الصليبية حيث انه قد حاجن من مقلية بامر الخلافة الفاطمية مخليا لها للصليبيين وهو طامع في ان يحاربهم . وقد سافر لحربهم في اندلس ولكن الهدنة التي امضاها الملك المعتمد قد فتت في عضده وردت عزيمته . بينما (حزبه) وعشيرته لم يتمكن من جمع شمله بها لان جزيرته قد بقيت في براثن الصليبيين الاتين من شمالي اوروبا بتحريض وبقيادة الاروام : وهو عجز البيت .

٣٤ ــ (الضريح) القبر المشيد (الرغام) التراب . وهي من قصيده ٢٨٢ التي كتب بها الى ابن عمه الطبيب علي بن ابي الدار في صقلية ومنها ابيات اخر تدخل في حكم (الاغتراب)

التشرد عن صقلية

لقد اضطر الى التشرد عن وطنه · فحيي حياة الاغتراب لا يعرف لقدمه مقرا · منذ دخل الثالثة والعشرين ·

لقد كان مستقرا · فهبط عليه حكم الاغتراب · نزل عليه نزولا لا قبل له بدفعه · ولقد جاهد ملء جهده · وجاهد ملء جهد شباب صقلية وملء مابثها الاسلام والعروبة من نخوة ومجد · ولكن !

ماذا عساها تصنع تلك الحفنة من سكان الجزيرة في مدافعة الامم الصفراء التي سحرها « الروم » بحضارة روما وبالدين المسيحي السامي ··· ثم ارسلوهم ضد الاسلام وقادوهم لحرب العرب والمسلمين · فكان حظ جزيرة صقلية ان وقعت في ضريقهم · فاكلوها واهلها ينظرون ! بل ان كثر هؤلاء النورمانيين قد اكل جميع ما توفر لهاته القلة الاسلامية من جهد

فجزيرة صقلية ارض محدودة بالبحر · ولم يعرف المسلمون - حتى ساعتها - انهم قد خرجوا عن دنيا دانت لهم · بينما دنيا « صقلية » قد تزايلت من تحت ارجل هؤلاء الكرام فكانت اول واقعة في نوعها ·

فنرى في شاعرنا ابن حمديس المثال الاكمل للشعور بذياك الغبن والقهر في حين ان شممه النفسي لن يعرف الانقهار ·

الجهاد

لقد كانت جزيرة صقلية لحينها تابعة لمصر منذ انتقل المعز لدين الله بدولته الفاطمية من المهدية الى مصر. وابتنى « القاهرة المعزية »

ولم تقرر مصر قبول المعركة الصليبية في تخمها المتقطع «صقلية» وانما كانت اندلس هي التي تتولى مهمة الكفاح ضد الصليبيين.

فكان على الصقليين المومنين ان يصمدوا بانفسهم ولكنهم في الوقت نفسه قد اضطروا الى النزوح . بعد تجربة التشبث وحرب العصابات . لو كانت المسالة مجرد غزو .

اذن فقد تشتتوا بين المشرق والمغرب بينما راينا شاعرنا قد نزح بزوجه وولده الى افريقية حيث اقرهم عند حماته عمته في مدينة صفاقس . وركب هو الى اندلس لكي يلاقي هؤلاء الصليبيين الذين اكتسحوا وطنه .

واذ رحى الحرب قد توقفت في اندلس . واذ الملك المعتمد ينعم في بحبوحة هدنة ما كان هؤلاء المجاهدين ليتوقعوها .

لقد كتبت عليه حياة « المحتشد » ! ولم يات صاحبنا ليعيشها . وما كان ليهنا . والثار تتاجج في ضميره ! واي هناء يجده ؟ نبيل تريف قد اعتنق السيف ليذود المعتدين ويعطيهم درسا . فاذا به يجد نفسه قد قبل حياة الجندي المحترف الذي يعيش في الثكنة وفي المحتشد

وفي المعسكر وفي الديار التي سخرتها لهم الحكومة لتاويهم ! وما جاءوا لياووا خالدين لتلك الحياة . وانما جاءوا في طلب كفاح قد ضاقت عليه ارض صقلية الصغيرة .

* * *

اذن فقد رجع لنفسه يستتبع ما فيها من خلاصة بشرية كريمة يمكنه ان يعيش عليها . فكانت هي الادب : الشعر . ورفعه الشعر في جلسة تاريخية الى وراثة منزلة ابن عمار عند الملك المعتمد بن عباد يوم سقوط الوزير الشاعر ابن عمار . وكان حلما لسذيذا ختمت ليلته ذات السنوات الست بصباح اخذ فيه الملك الى المنفى وذبح فيه ابن شاعرنا في جحر ابيه وانهار ملك الطوائف ودولة الشعر ... ولما كانت النكبات توءلف عائلة متضافرة الافراد فقد توالت النكبات على شاعرنا . فغرقت المركب التي فر عليها من اندلس . ومات امامه جاريته التي كانت شمسها ترد عليه برد الغربة ويجلي عليه تبلجها كل ظلام . وهو في تمازيق ثيابه يضم الجثة ويعجب بالكحل لم تغسله عن اهدابها الامواج التي اغرقتها وطوحت بها حتى الشاطيء ... ثم دفنها على ضفة هذا البحر

---

١ — ابو بكر ابن عمار شاعر طموح بلغ امارة مرسيه وعنها اخذه المعتمد ابن عباد فكان الوصول اليه به من قرطبة يوم الجمعة ٦ رجب ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م. وهو اليوم الذي كان معينا لاقتبال شاعرنا ابن حمديس من نفس الملك المعتمد . فتاجل الاقتبال اياما .

المتوسط بين انصاف الحضر من هذه البشرية المتنازعة . ليستانف حياة التغرب التي لم يقصد من ورائه ثراء ولا علما ولا املا ولا اعزاء

٥ وما هي الا غربة مستمرة ارى الشيخ فيها بعد سن غلام
٧ وما شيب الانسان الا تغرب يمر عليه اليوم منه كعام
٩ واني لسهم في نفادي . وليتني تهدف بي دار الاحبة رامي !
١٧ فلا تحسبوني قد تسليت عنكم بطيب سماع او بكاس مدام
١٨ ولا ضحكت سني وهل ضحكت وما وضعت على فض الدموع ختامي
١٩ متى كنت مختارا على الوصل فرقة تطيل الى ورد اللقاء هيامي
٢٠ ولا تحسبوني خائفا قطع مهمه يدوم واخفاف المطي دوامي
٢٤ الم اركب النحس اشتياقا اليكم قوارب مخضر الغوارب طامي
٢٥ الم اك في الغرقى مشيرا براحتي فلم انج الا من لقاء حمامي

وعاش دائما غريبا متقلبا في ديار الغربة من سبتة الى اغمات ومن تجنة الى سفاقس ومن سفاقس الى المهدية لا يرده شيء ولا يمسكه جاذب . منذ فقد الوطن . وكان القدر قد شاء ان يطلقه من كل عقال إذ افتك وطنه وماتت زوجته مشتاقة اليه تمني بنيها الذين لا يفقهون بانهم سينعمون باحتضان ابيهم بعدها . وماتت جاريته ومات ابنه البكر وتقطعت اوصاله حتى الملك الذي اصطفاه قد نكب ثم وجده سجينا فواساه وعلله حتى مات في سجنه وشاعرنا يهون على نفس الملك بينما هو لا يجد من يهون عليه ! .

تشتت الشمل

وله في وصف ذياك التشتت بلاغة وطرافة يدلانك على مبلغ ما يحز في نفسه فتتفنن في تصويره بالصور المؤثرة المؤلمة . والصور البلاغية التي يتعسف فيها ما يناسبها من جزالة التركيب وغرابة المعنى وقوة التجنيس . فيقول في توصيف وقعتهم وتشتت الامة المقهورة :

١٤ عصا شملهم شت فشرق منجد الى طيبة منهم وغرب متهم

١٥ وماقد قد السير بالطول سيرهم ولكنما المنقد قلبي المتيم

---

١٤ — (عصا) ضرب بالعصا مثل « ساط » ضرب بالسوط . (الشت) التشتت والتفرق والتقسم . (منجد) من النجدة وهي المسارعة للمناصرة . وفيها توزية بالذهاب نحو « نجد » في جزيرة العرب . وليس هنا قصدها . وكانما يرمز به الي حزب التكافل مع المشرقيين : فاطميين او عباسيين (متهم) من التهمة . وهم حزب المعارضة الذين لا يرون الاعتماد علي الوحدة الشرقية بل يرون تكوين الوحدة الغربية ضمن سلطان افريقية وقد كان له انصاره لعهدها (راجع ما بسطناه في الثورة علي المشارقة ضمن ترجمة (محرز بن خلف) في كتابنا الكبير (بلاغة العرب في افريقية) . علي ان هناك توزية فالمنهم : لذي يذهب نحو تهامة تنظر الي المثل « ابن المتهم من المنجد » .

١٥ — (قد) الاولي برفع القاف مبني للنائب . من قدد الجلد وقد الاديم اذا شقه وقطعه ومنه قديد اللحم مشققه نفسه لتخلله الشمس او الملح و (قد) الثانية : الطول والمقدار . تقول « قسته علي قده » . (السير) الشريط من جلد او غيره . ذو طول مديد مع عرض قليل تافه بالنسبة له (المنقد) المتفطر والمتشقق . ومنه في القرءان عند وصف حادثة يوسف وزليخا امراة فرعون لما ادعت عليه وقد تصادقا علي ان تمزق ثوبه كان في المصارعة بينهما « ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ٢٧ وان كان قميصه قد من

فالتشتيت قد ضربهم بعصاته وساطهم سوطه فشرق اخباوه المنجدون وغرب هو المتهوم في حبهم . فكان سير الواحد منهما تتضاعف به مسافة التباعد . ويشبه هذا التضاعف بقد من سير جلد تقف فتشقه قدين يميل احدهما لجهة والاخر ضده فكلما نزلت بالشق قدا واحدا كانت المسافة بين الطرفين قدين من ذلك السير . فما اغرب التصوير وما اصدق التشبيه . وما ابلغ التركيب . ولا يزيده عقد التجنيس الا اغرابا . ولا يزيده التفهم الا اشعارا . وانما هي الحرقة الطاغية يرى بها ما لا تراه انفسنا التي لم تلفحها تلك الشموس الوهاجة من الوقع الجلل .

وهي من القصيدة ٢٦٧ في ديوانه الذي سنعتضد باخراجه مصححا مقابلا كما عملناه فيه ٣ سنوات من ايام اغترابنا بدورنا . وقد جعلنا عنوانها (ذكريات) ولم نشبع من تكرارها كلما وجدنا لذلك فرصة

دبر فكذبت رمز من أصادقين » السورة ١٢ يوسف . ونرى هذا المعنى لابن راشيق شاعر المرية الصنهاجي :

يا بعد ما بين ممسانا ومصبحنا ... والعيس قاطعة ميلين في ميل
جاءت به ريحها ترمي الفجاج بنا ... عنا وعنسا بكم ابدي المراسيل
سيرا يزاد به ضعفا مسافتها ... كانما هو (سير) قد بالطول

ولا نرى بأنه ان قد عرف هذا المقطوع شاعرنا ابن حمديس في قراءة لذهب فركبه وزاده ظرفا وابداعا . وابن حمديس من زعماء مصر الوليد وله مساجلات طريفة مع الشاعر على المعاني القديمة التي يمكنه ان يزاحمها او يولدها او يحسنها . نراه في بحث ادبه من غير جنسها . نراه في بحث ادبه من غير هذا

عزة المكابده

انما كان صاحبنا محتضنا في جميع تغرباته « الذكريات » . فيعيش بها . وينكر بها مصائبه وتهدمه وشيخوخته وارتعاشه .

وكان يتقلب على ظهور القوارب وفوق غوارب المطايا فتستوي لديه البحار والصحاري لانه غريب هنا او هناك مستهدف للقدر حيثما كان . ولقد اخذه القدر بما لا طاقة له به . وهو في جزيرته وفي مجده الوطني وفي بيته الرفيع العماد . فلماذا يقيم اليوم بيت وبر او صخر .. ان الحياة قدر .. ولا مفر من القدر . انما هناك شيء يبقى للانسان . فينعم بجنات « ذكرياته » . ليستانف ترحله .

١ فؤادي نحيب والجواد نجيب فابعد مطلوب علي قريب
٣ اذا كان عزمي مثلما في حمائلي فاني امرؤ بالصارمين ضروب
٦ فشهب الدراري وهي علوية لها طلوع على آفاقها وغروب
٥ وبادر ولا تهمل سرى العيس انها لها خبب في النجح ليس يخيب
٧ ولو لم يكن في العزم الا تقلب ترى النفس فيها سعيها فتطيب

فهو قد لبس دور التغرب الذي كتبه عليه القدر المحتوم . فارتضاه وكرمه واخذ منه التجارب وغنى عليه بشعره كما لو كان منحة وكرامة ! ويكفيه من تلك التجارب القاسية ان ترى نفسه اثرها وبلاءها حتى ترضى وتطيب الى انها قد بعث السعي الانساني الكامل واعتضدت بالمأمورية الملقاة على كاهلها اعتضاد المختار

الرشيد ! فتطيب لمجد التصرف البشري ·

فهو اذن يتقلب في طوال الشطر الغربي من هذا الشمال الافريقي كما نسميه اليوم · مستغنيا باحلامه عن كل تلك الاحوال الآخذة في الاحليلاك · فالحياة المادية متوفرة لاخس الحيوان واخس الطحالب · وانما الحياة الروحية في الامل الموصول بالجهد الواصل بالتاميل · والحال — عنده — درجة كانت مطلوبة ليصعد عليها برجله الانسانية الطموحة الى درجة ارفع في النفس المثربة لعليين وما ادراك ما عليون ·

١ امطك همتك العزيمة فاركب لا تلقين عصاك دون المطلب
٢ واطو العجاج بكل يعملة لها عوم السفين على سراب السبسب
٣ شرق لتجلو عن ضيائك ظلمة فالشمس يمرض نورها في المغرب

انما ترغمنا البيت الاخير على التلميح الى مذهب التقشف للمرابطين الذين اكتسحوا جناته باندلس حتى مات ملكها ابن عباد في اغمات من هذاك المغرب الذي انكسرت على شواطئه سفينة احلامه تتراه اخيرا مشرقا نحو صفاقس والمهدية في ظل الدولة الصنهاجية المشرقة · فلا غرابة ان يتطير من المغرب !

وانك لترى من شعره — في هذا الدور — ان قد اصبحت الرحلة ملجا والترحل ملاذا لنفسه المستطارة عن اوكارها ! وكر الصبي من صقلية ووكر الشباب والبلاط المرفه بالحب والنعيم في اندلس · فقد خرب عشه في الاولى ومزق شمله في الاخرى · فاستطار الى الرحلة والتنقز لا يقر له قرار · وكانما اصبح شاعرنا من الطيور ذات رحلة

الشتاء والصيف . فالرحلة عنده « غاية » يحض عليها بكل حجة وبالشعر الخلاب . لأن ركوب مطايا العزم وامتطاء افلاك الحزم هي طريقته التي ذادته لها الاحداث . فاصبحت خلته التي يعتنقها لاستبقاء نفسه والشموخ بكبريائه الانساني الرفيع . بل اصبحت ذاتيته ومن نفسه . بعد ان اصبحت الغربة له وطنا . لان روحه اكبر من الام جسمه .

٢٠ وما ضاقت علي الارض الا ... دحوت مكانها خلقا رحابا
٢١ ساعتف القفار بمرقلات ... تجاوز بي سباسبها انتهابا
٢٥ واسري تحت نجم من سناني ... اذا نجم عن الابصار غابا
٢٦ وان الميت في طلب المعالي ... كمن نال المنى منها وعابا ١٢

والآن ! اراءيت هاته النهاية ؟ لقد استغنى بالخاتمة عن الغاية ! فالغاية ـ اذن ـ انما هي تعلة للنفس العمالة المحاولة . والقناعة اصبحت وسيلة لسياسة النفس على احتمال مصاعب الجهد العامل وللترغيب عن الكسل ! بل قل ان اعلان الغاية وسيلة احتجاج ودعاية تتغنى بها النفوس المجبولة على السعي جبلة التحل على سبك الشهد لاسترضاء غرائزها المركبة في طباعها جبلة ! فما اعجب هاته النهاية من « رقي » البشرية ان تجد نفسها مساقة عند ما كانت تظن نفسها تسوق العوالم في حضارتها ! والعياذ برب الناس من هاته المساقة الفكرية . بل خير لنا ان نتبع الشاعر ابن حمديس فيما يسبقيه لنا ديوانه .

مجد الاغتراب

حري بنا ان نقف على هذا المعنى الغالي الذي يعرفنا ان في المشاق لذة ورضى وتطيبة لهاته النفوس القدة « ولو لم يكن في العزم والحزم من نتيجة الا ذلك القلب والصراع الذي غالبنا به الظروف والاحوال ... لكفى» فتلك المصابرة والمغالبة والصراع هي مجد الانسانية وطمانينة النفوس المتوثبة .

ولعلنا من هاته البيت يمكننا ان نستكشف غريزة انسانية « مجد المغالبة » .

فهاته الغريزة هي التي تغري الانسان بمصارعة الثيران لمجرد « مجد المصارعة » وهي التي تجعل شبان العصر السالف يمارسون المصارعة وهي نفسها التي نراها في مظهر احط عند ما تضيع على الشبان اوقاتهم في « اطراح » من لعب الورق او لعب النرد « شيش بيش » او غيرهما مما ينهمك الشباب في مغالباته التافهة بينما نفس هاته الغريزة يصرفها الرشاد والتوفيق - في الشعوب المهمة - نحو امجاد سامية تفوز بها الامة في ميادين الرياضة البدنية والرياضة العقلية بمقادير تحيي المران ولا تستهلك اوقات الامة ولا تفوت مطالب الحياة

اما في صاحبنا ابن حمديس فهي غريزة قد كانت طاغية عاملة

توجهت به نحو التقلب في البلاد ومغالبة صعاب ماجدة وقد ادركها عقله الماجد ـ فلم تغمض عنه ـ وقد وضحها لنا في شعره فبسطها فيه تبسيطا مر بك اطراف منه . ثم هو قد اختزلها لنا اختزالا رائعا:

فلو لم يكن في العزم الا تقلب ترى النفس فيها سعيها فتطيب

ومفهوم انه قد كان في سياق التقلب في الغربة . ولعله لو كان بصدد تقرير الحقيقة المجردة لابدل « التقلب » في صدر البيت بكلمة (تغالب ليكون اعم من « التقلب » في الهجرة والتقلب في البلاد

١٥ رمي فاصاب الهم بالهم اذرمى هي الكف ترمي اختها فتصيب

١٦ واجرى سفين البر في لج زئبق من الال هزت جانبيه جنوب

فالنفس العبقرية لن توءودها . . . لن توءودها هاته المادة . ولتبلون الحياة بالجهد . ولتغرقن الحاجة في الطلب . حتى ينقلب الافتقار همة والهمة عطاء وفيض كرم ! .

١٧ احلت عزمي على همي فقطعه كان عزمي من صمصامتي الذرب

١٨ ما قر بي السير في سهل ولا جبل الا كما قر جاري الماء في صبب

١٩ ولم اضق في السرى ضرعا بمعضلة قد زاحمتني حتى ضاق مضطربي

١٠ وترتقي حر انفاسي فابعثها بردا وان كان مستسقى من اللهب

١١ واحر بالحر ان تلقاه ذا جلد وان تبطن داءا قاتل السوصب

فابن حمديس الذي رايته يحرم الهجرة في باب روح الوطنية . ويرى التقيد بالوطن ويحرم الهجرة عن الوطنيين (ص ١٢) . تلقاه اكبر داعية للتقلب في البلاد . اذا كان هناك ضيم . عند ما فقد الوطن :

٤ اذا كان الشواء عليك داء فبروك في نوى يمطي الركابا
٦ وان اخا الحزامة من كراه كحسو ـ مروع الطير ـ النغابا
٨ فصرف في العلى الافضال جزما ورفعا ان تحوت بها الصوابا
١١ ولا ترغب بنفسك عن فلاة تخال سراب قيعتها شرابا
١٢ فكم ملك ينال بخوض هلك فلا يبهم عليك الخوف بابا
٢٠ وما ضاقت علي الارض الا دحوت مكانها خلقا رحابا

فيا له من ملك ينال بخوض التهلكة . ويا له من شد لعزيمة ذوي العزم . ويا له من دافع للاقدام ويا له من مجد وجراة

طلاب فلاة جواب ءافاق كانه هو يهيء الناس ليجوبوا معه الارض منقلعين من كل التصاق وكل ارتباط بالمقر . لانه فقد وطنه وبارح مغرسه . فلم يعد يشته ان ينغرس ـ ابدا ـ واصبحت الاوطان لديه سواء . فهو الغريب في غرز الناقة وفي ركاب الخيل وعلى مقعد الفلك . من بيداء الى ثغر ومن قلعة الى مدينة ومن شاطيء الى جبل ... كلها لديه سواء . في طلب راحة الضمير الذي لا يقر بغير وطنه المفقود

على انه قد عانى من البحار ومن القياقي والقفار اهوالا . لم نعرف شاعرا وصف منها ما وصفولا رحالة ابلغ عنها ما ابلغ . قد خصصنا بها فصولا نوفو بها على جامعي ظرائف الادب ذخرا . ونهيء منها معرضا نضدا لمن لا نفس تشتهي ان تقابل غرائبها باداب السلك بين سلكه او غيره من ادباء اللغات

٢ وتطرحني بالعزم من غير فترة سفائن بر في سفائن ابحر-٣٤٩

الغرام والرحلة

وكثيرا ما يمزج لنا صور هذا التغلب مع افانين غرامه . فيغلب التقلب والترحال على الاستقرار في بحبوحة الحب :

١٦ايا هذه ان العلى لتهزني حساما على طرف الحوادث قاطعا
١٧ذريني اكن للعزم والليل والسرى وللحرب والبيداء والنجم صابعا ١٩٣

فغرائز الحب — بلواتها — ان تكبح من جماحه في طلاب التغرب بعد ان فارق الوطن وانقلع عن حبه الفطري

١١ومن يطلب المجد ينزل الى قرى النهر عن نهد عذراء رود
١٢ويرمي عن البين عزما يعزم وليلا بليل وبيدا ببيد ٧٥

وهذا باب واسع قد اغلقنا منه هنا لنفتحه على مصراعيه عند دراسة « الحب والملهو » . وانما نجمل هنا ان صاحبك لذو عزة وكرامة نفسية تتعالى في النهاية عن كل ما يلتبس ويتلبس بالجسد ومجرد الذوق في المحسوسات

١٢٩انا نبع لاخروع . قد عمري وارى العود منه نبع وخروع
٣٠لست اثني عن السرى في طريق خيم الليل فوقه فهو خيرع

٣١فكاني خلقت جواب ارض اصل العزم حشوها وهي تقطع
٣٢وكاني في مقول من زماني مثل وافد على كل مسمع ١٨٨

في الفلوات والصحاري

ان همى همة أسمرها ولها قلت فمالي والقعود
وفلاة أبدا ضائعة مشفق من قطعها العود الصنود
حمل الماء ولا تشربه فهو للمروى بها عين حسود
جبتها في متن ريح تنبري السرى بين سبوع وقتود
في ظلام طنبت أكنافه فرق أرجاء وهاد ونجود
ولقد قلت لحادي عيسنا رهي بالنجل على النجل تجود :
أنجاء تخرق الخرق به كابدته منك أم مضغ الكبود

ان هجرته في السوطن قداخرجته من جزيرته المحدودة الارض وبط البحر الابيض الى هاته الدنيا الافريقية . وتغلغل في

جبالها يكابد صحاريها . فوقعت عينه على مناظر لم تالفها في الصبا ومن هنا امكنه ان يرى فيها ما لم يصفه غيره من اهل جزيرة العرب اصحاب الربع الخالي !

٢٧ حيث اذكت ذكاء فيها اوارا يلفح الوجه في اللثام فيسفع
٢٨ واذا ما لامست جدول ماء خلته حية من الحر تلسع ١٨٨

---

٢٧ — ذكاء : الشمس . الاوار : وهج اللهب . يسفع : في الوجه يسمر سواده بحمرة ، وهو أعم من تلويح الشمس .

الماء في الصحراء

ومن ابلغ قصائده التي تلذ نافي وصف احوال صحاري المغرب :

٢٠ومشحونة بالخوف لا امن عندها كأنك فيها حيث سرت - مريب
٣١كأنك في ذئب عظيم بقطعها خافت الى الرحمان منه تتوب
٢٣ترى رامح الرمضاء فيه كأنه مواقع تار واقعته ذنوب
٢٤كان ارتفاع الصوت فيه تضرع اذا لذع الأحشاء منها لهيب
٢٥وتحسب ان القفر حم فماؤه من العرق الجاري عليه صبيب
٢٦وما كان الا خير ذخر تعده قطاة - لارماق النفوس - وذيب
٢٧وراع سوام الشمس لم تشو وجهه ولا لاح للتلويح منه شحوب
٢٨ له لولب في العين ليس يديره لذي ضمأ حيث المياه تلوب
٢٩رقيب على شمس النهار بفعله احتى على شمس النهار رقيب
٣٠اذا نزل الركبان طاب لنفسه على الجمر من حر الهجير ركوب
٣١تكون وسط النار منه شبيكة من التبر ليست بالوقود تذوب ٢٩

وله في وصف ماء الصحراء الطاف ومغاصات غريبة هائلة تصف لنا اشتداد الحاجة لاسترجاع الحياة في تلك الصحراء بالماء ... مهما كان !

١٨ يبل صدى الارماق في القيض ركبه بملتعط يثني القطا عن جماحه
١٩ تمزق عنه الكف جلباب عرمض فيبدو كنور الصبح تحت ظلامه ٢٧٩

فهذا الماء المخبوء في جلباب الطحالب والعرمض ليكونن في عين الهالك عطشا خيرا من نور الصباح !

وقد مر بك انه يعتبره ذخيرة الصحراء التي هي ذخر القطا والذيب . ولكن هذا الانسان الحضري يحسب جميع ما في هاته الدنيا ملكا له . حتى نفس القطاة ونفس الذيب . لان الانسان قد نصب نفسه خليفة الله في ارضه . وقد خلقها كلها للانسان .

DATE DUE

JAFET LIB.
12 MAR 2005
Circulation Dept.

JAFET LIB.
13 OCT 2004
Circulation Dept.

JAFET LIB.
AUG 2008
Circulation Dept.

السنوسي، زين العابدين
الوطنية في شعر ابن حمديس
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01033655